

## المؤسسة العسكرية والميليشيات الإسلامية السنية وتغيب السوريين

رشيد الحاج صالح<sup>(1)</sup>

على الرغم من الاختلافات الكبيرة بين بنيتي النظام السوري والميليشيات الإسلامية السنية في سورية، في مرحلة ما بعد 2011، وصراعهما الدامي على السلطة؛ إلا أن المتأمل في المبادئ التي ينطلق منها كل منهما في التعاطي مع الشأن السوري العام تكاد تتشابه إلى حد كبير، ولا سيما تصور كل منهم لمفهومات: "السياسة"، "الشعب"، «السلطة» و«العنف».

هذا التشابه هو ما يفسر أن النظام الأسدي فضل، عندما ضاقت الخيارات أمامه، أن يكون أعداؤه من الميليشيات الإسلامية السنية، وليس من المتظاهرين السلميين المندفعين إلى الشوارع، والمطالبين بشعارات مدنية تعلي من شأن الحريات والحقوق. ولعل هذا ما يفسر أيضاً الإفراج الكبير الذي قام به النظام الأسدي لعدد من كبار الشخصيات الإسلامية السنية العسكرية من سجن صيدنايا سيئ الصيت في 26-3-2011<sup>(2)</sup>، على الرغم من قتله 11 ألف سوري مدني، تعذيباً وجوعاً، في سجون بحسب الصور التي سرّبها "قيصر" عام 2014، وأكد صحتها خبراء في مجلس الأمن<sup>(3)</sup>.

(1) أكاديمي وباحث سوري، عضو هيئة التحرير في «قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية».

(2) من بين المفرج عنهم هناك: زهران علوش الذي أسس جيس الإسلام في ريف دمشق. حسان عبود قائد حركة أحرار الشام الإسلامية ومؤسسها، هشام الشيخ (أبو جابر) القائد العام لحركة أحرار الشام بعد مقتل حسان عبود. قائمة الإسلاميين الجهاديين المفرج عنهم من سجون النظام الأسد عام 2011 طويلة وتضم: أحمد عيسى الشيخ مؤسس ألوية صقور الشام في إدلب. محمد بهايا الملقب بأبو خالد السوري، اعتقلته أميركا في باكستان، وسلمته للنظام السوري عام 2006. كان صديقاً لأيمن الظواهري الذي كلفه عام 2012 لكي يقوم بالوساطة بين تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة، لكنه قتل في 2014 إثر تفجير أحدهم نفسه بحزام ناسف في مكتبه، وقيل إن تنظيم الدولة الإسلامية يقف وراء التفجير لأنه دعاهم إلى التوبة. كما كان أحد القياديين الكبار لحركة أحرار الشام وأميرها في حلب، كما أفرج النظام الأسدي عام 2016 عن حسن صوفان (أبو البراء) من سجن صيدنايا في صفقة تبادل أسرى مع النظام الأسدي، صوفان أصبح بعد عام واحد رئيس مجلس شورى حركة أحرار الشام الإسلامية ثم قائداً عاماً لها.

(3) يذكر أن سجن صيدنايا كان قد خصصه النظام الأسدي للإسلاميين العائدين من العراق عام 2003، إضافة إلى المعارضين الذين يصنفهم النظام على أنهم خطيرين. أما بعد الثورة فقد تحول السجن إلى مقر لاعتقال آلاف المدنيين ضمن أوضاع رهيبية.

ولكن لماذا استفاد النظام الأسد من التنظيمات الإسلامية السنية المسلحة في تكوين ثورة مضادة لثورة السوريين؟ وكيف خدم كل طرف الطرف الآخر ووظفه من حيث يدري أو لا يدري؟ وما الأرضيات المشتركة التي تجمع بينهما وتجعل الخيار بين أحدهما خيارًا عديمًا بالنسبة للسوريين؟

### أولاً: خلفية عامة

بعد اندلاع الثورة السورية بعدة أشهر أخذت الميليشيات الإسلامية المسلحة بالظهور بأشكال متعددة<sup>(4)</sup>، وكان خطابها العام سلفياً جهادياً. وقد ساعد كل من: الارتفاع المتزايد في عدد القتلى المتظاهرين من قبل النظام الأسد، ولجونه إلى القتل المنظم واليومي خياراً وحيداً للتعامل مع المنتفضين المدنيين، إضافة إلى الطائفة غير السنية التي ينتمي لها قائد المؤسسة العسكرية الأمنية بشار الأسد، واحتكار أقربائه وعدد من أبناء طائفته المناصب الأمنية والعسكرية الحساسة طيلة سنوات حكم آل الأسد، واعتماده أيضاً على كل من إيران وحزب الله داعمين أساسيين له في مرحلتي ما قبل الثورة وما بعدها. هذه العوامل كلها ساعدت مجتمعة في تصاعد الخطاب العسكري الإسلامي السني بين السوريين المتظاهرين، الأمر الذي سهل تقبلهم مثل تلك الميليشيات، بوصفها الخيار الأجدى والوحيد المتاح أمامهم.

سرعان ما أدت الأيديولوجية السلفية المتشددة التي تبنتها تلك الميليشيات إلى توسيع صراعاتها العسكرية لتتوالى «كتائب الجيش الحر»، محلية المنشأ، والمرتبطة بالحاضنة الشعبية للثورة. وبالفعل مع عام 2013 أخذت الميليشيات الإسلامية تخوض صراعاً عسكرياً شرساً على جبهتين: النظام السوري من جهة، وكتائب الجيش الحر من جهة أخرى. حتى يمكن القول إن نهاية كتائب الجيش الحر كانت على يد الميليشيات الإسلامية السنية أكثر مما كانت على يد قوات النظام الأسد.

أما الجبهة الثالثة التي فتحت بعد عام 2013 فهي صراع الميليشيات الإسلامية بعضها مع بعض،

(4) تأسست جبهة النصرة بتاريخ 24 كانون الثاني / يناير 2012، كما تأسست حركة أحرار الشام الإسلامية في كانون الثاني ديسمبر 2012، في حين تأسس لواء الإسلام (نواة جيش الإسلام لاحقاً) في حزيران/ يونيو عام 2012، أما إعلان تأسيس جيش الإسلام فكان في يوليو/ سبتمبر عام 2013. وتشكلت جبهة أنصار الإسلام في الجنوب السوري في 8 آب/ أغسطس بزعماء أبو مجد الجولاني، يذكر أن غالبية الميليشيات الإسلامية تأسست بطريقة توحد بعض الكتائب الإسلامية المنفردة في تجمعات ثم أصبح لها كيان مشترك وزعيم واحد.

ولا سيما الصراع العسكري المدمر بين تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) وجبهة النصرة في دير الزور والرقعة وإدلب وحلب وجبال القلمون ودرعا، إضافة إلى الصراع العسكري بين ألوية صقور الشام وتنظيم الدولة الإسلامية عام 2013، وصراع صقور الشام مع جبهة النصرة في إدلب، والصراع بين جيش الإسلام وتنظيم الدولة الإسلامية، والصراع بين جيش الإسلام وجيش الأمة في غوطة دمشق في 2015، والصراع بين جيش الإسلام والاتحاد الإسلامي لأجناد الشام في الغوطة. إضافة إلى صراع هيئة تحرير الشام مع حركة أحرار الشام الإسلامية في مناطق ريف حماة. يذكر أن الصراعات البينية بين الميلشيات الإسلامية السنية أكثر من أن تعد وتحصى حتى أنه يمكن القول إنه لا يوجد قرية سورية، في مناطق سيطرة الميلشيات، إلا وشهدت معارك بين تلك الميلشيات.

وتقوم الأيديولوجية العامة لتلك الفصائل على ضرورة إقامة شرع الله في سورية والعودة إلى الإسلام الصحيح والتأسيس «لحكومة إسلامية راشدة على منهاج النبوة»<sup>(5)</sup>. صحيح أنه هناك اختلافات بين تلك الميلشيات غير أنها اختلافات لا تمس جوهر النظرية الأيديولوجية، ولا تتعدى كونها اختلافات في الشكل والتفاصيل، تفرضها الأحوال وموازين القوة. حتى الصراعات الكبيرة التي خاضتها تلك الميلشيات بعضها ضد بعض لا يمكن تفسيرها بأنها تعود إلى اختلافات أيديولوجية بقدر ما تعود إلى محض صراعات على النفوذ والانفراد بالسيطرة، وخطط الممولين وسياساتهم.

سرعان ما أدرك السوريون، ولا سيما الذين أصبحت مناطقهم تحت سيطرة تلك الميلشيات، تشابهاً واضحاً بين طريقة عمل المؤسسة العسكرية/الأمنية للنظام الأسد، وطريقة عمل تلك الميلشيات التي تمكنت السيطرة على مناطق واسعة من سورية منذ عام 2012، وصلت إلى ثلثي الأراضي السورية عام 2013. حيث تقاسمت تلك المناطق كل من: هيئة تحرير الشام وتنظيم الدولة الإسلامية وجيش الإسلام وحركة أحرار الشام الإسلامية وأحفاد الرسول وألوية صقور الشام وغيرها، قبل أن تتراجع بدرجة كبيرة بعد عام 2017. أما كتائب الجيش الحر فقد تلاشت تحت ضغط عدم التمويل من جهة، والتمويل الكبير الذي حصلت عليه الميلشيات الإسلامية بالمقابل من جهة ثانية.

تقوم الرؤية العامة للبحث على أن هناك تشابهاً يصل إلى حد التطابق أحياناً بين النظام الأسد والميلشيات الإسلامية السنية التي ظهرت في سورية بعد اندلاع الثورة، وأن هذا التشابه يشمل مضمون مفهوم السياسة لدى كل منهم أولاً، وموقفهم من الديمقراطية وشكل نظام الحكم ثانياً،

(5) ورد هذا الكلام في لقاء للجولاني مع قناة الجزيرة في ديسمبر/ كانون الأول عام 2013:

<https://www.youtube.com/watch?v=Dir1HoHJlQA>

وطريقة تنظيم المؤسسات التنفيذية ثالثاً، وتصورهم لـ «السوريين» من حيث هم كيانات سياسية رابعاً، وطريقة تكوينهم للمجتمع من حيث هو «مجتمع من أجل القتال» خامساً، واعتمادهم على نظرية المؤامرة بشكل مركزي سادساً؛ الأمر الذي يجعل من الاختلافات بين الفريقين خالية من أي معنى سياسي أو إنساني.

وينتهي البحث إلى أن الصراع الذي دار، ويدور، وبين هذين الطرفين أدى في النهاية إلى الالتفاف على مطالب السوريين بالحريات والحقوق وإقامة دولة العدالة والقانون، وأن قادة الميليشيات الإسلامية السنية والنظام الأسدّي أكثر من يعرف هذه النقطة، وما موقف الطرفين المتقارب من قضايا الحريات والمواطنة والحقوق إلا دليلاً على ذلك التنافس وليس الاختلاف.

### ثانياً: ماذا تعني السياسة عند الطرفين؟

تنطلق الميليشيات الإسلامية السنية من فهم للسياسة من حيث هي «العمل من أجل امتلاك السلطة» وليست من حيث هي أيضاً عمل سياسي واجتماعي يشرك أكبر قدر ممكن من الناس، بوصفهم موضوعاً للسياسة ولهم دور في المجال السياسي، وأن مصالح أولئك الناس وتطلعاتهم تشكل، في النهاية، أحد أهم الأهداف الرئيسة للعمل في السياسة. على العكس من ذلك، السياسة عند تلك الميليشيات محض وسيلة للوصول إلى السلطة، ونيل أكبر قدر ممكن من النفوذ والسيطرة، ثم إخضاع المجتمع عبر تلك السلطة، أو ما يعرف بأدبيات تلك الميليشيات بـ «التمكين».

مفهوم السلطة عندهم مرتبط بدوره بـ «العنف» الذي يعد أهم وسيلة لجلب السلطة. هذه المعادلة تنتهي إلى أن السياسة عندهم هي العمل على توظيف أكبر قدر ممكن من العنف من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من السلطة. السياسة عندهم هي بكل بساطة «الجهاد»، مجاهدة المسلمين بالقوة حتى يعودوا إلى صحيح الشريعة الإسلامية ومجاهدة غير المسلمين حتى يخضعوا لحكم الشريعة الإسلامية.

هكذا يمكن فهم سهولة انزلاق تلك الميليشيات نحو العنف المسلح من حيث هو أسلوب العمل الطبيعي الذي يعبر عن ماهيتهم، ويفرض حضورهم في المجتمع.

وبما أن مصدر السلطة عند هذه الميلشيات إلهي، ومهمة الحكام هي تطبيق شريعة الله على عباده، ومراقبة مدى التزامهم بها، فإن السوريين (عباد الله) بالنسبة إلى تلك الميلشيات هم موضوع للسلطة وليسوا مصدرًا لها أو حتى شريكًا فيها. هم موضوع للمراقبة لتحديد مدى التزامهم بالشريعة الإسلامية وفق تفسيرات «شرعي» تلك الميلشيات وآباءهم الفقهاء.

أكثر من ذلك، فإن السوريين هم أشبه بالعصاة والمارقين والمشبهين والضالين والمرتدين والكفار، لأن الاعتقاد العام، أو الفكرة شبه المسلم بها لدى كل تلك الميلشيات أن السوريين (ومسلمين هذا العصر عمومًا) يعيشون حالًا من عدم الالتزام بالشريعة الإسلامية، حالًا تشبه حال المسلمين المرتدين أيام ابن تيمية، ومن ثم فهم بحاجة إلى إعادة تأهيل وتربية وتكوين من جديد، حتى لو وصل الأمر إلى استخدام العنف والقتل. شرعية تلك الميلشيات بالنسبة إليها نفسها، أو الرسالة التي تبرر وجودها أمام نفسها، هي أنه عليها إعادة السوريين إلى جادة الصواب وتأديتهم. هذا يعني أن السوريين بالنسبة إليها هم (آخر)، أو مرتدون، أو جاهلون، وهذه النواقص تؤدي إلى نشوء ميل عام عندهم نحو الفسق والانفلات الأخلاقي والتهاون في العبادات، ووقوعهم في دائرة الضلال المبين، وهي أمور يجب أن تعالج بحسم.

تصور الميلشيات الإسلامية السنية للسياسة مأخوذ مما هو معروف تاريخيًا بـ «السياسة الشرعية»<sup>(6)</sup>. والسياسة الشرعية عند شرعي الميلشيات الإسلامية السنية تقوم على «مجاهدة» كل تارك «لشرائع الإسلام الظاهرة»<sup>(7)</sup>. و«العقوبة على ترك الواجبات، وفعل المحرمات، هو مقصود الجهاد في سبيل الله، وهو واجب على الأمة بالاتفاق، كما دل عليه الكتاب والسنة»<sup>(8)</sup>. ولعل هذا ما

(6) يقصد بالسياسة الشرعية مجموعة من الكتب والتعاليم والفتاوى أسست لتنظيم المجتمع سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا بناء على قواعد الشريعة الإسلامية. حيث فصلت في مئات القضايا التي تتعلق بقواعد اختيار الحاكم وشروط الخروج عليه، وقواعد التعامل مع غير المسلمين والمرتدين، والكفار والمشركين، وتحديد كيفية التصرف بأموال بيت المسلمين، وقواعد تطبيق الحدود، وأمور الحرب والقتال، وعقوبات المخالف للتعاليم الإسلامية. أشهر كتاب تعتمد عليه الميلشيات الإسلامية السنية المعاصرة هو كتاب «السياسة الشرعية» لابن تيمية. طبعًا هناك عشرات الكتب تحمل العنوان نفسه غير أن تصور السياسة الشرعية يختلف بحسب الأشخاص والتوجهات والمرحلة التاريخية. فمثلًا للإخوان المسلمين كتب تحمل العنوان نفسه، كما لفقهاء السلاطين كتب تحمل أيضًا العناوين نفسها.

(7) ابن تيمية، السياسة الشرعية، (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، 1419هـ)، ص 60.

(8) المرجع نفسه، ص 60.

يفسر إلحاحهم الدائم على أن الجهاد هو "فرض عين" وليس مجرد "فرض كفاية"<sup>(9)</sup>.

المفهوم الأساسي الذي تتعامل من خلاله تلك الميليشيات مع السوريين السنة هو مفهوم «الردة». وهنا يلتزم الشرعيون بمفهوم الردة عند ابن تيمية الذي يقول بأن كل من يخالف الشريعة الإسلامية، مهما كانت المخالفة بسيطة، فهو مرتد، والمُرتد يستتاب، وإذا لم يستجب، يقتل.

هناك نوع ثاني من تكفير تلك الميليشيات للسنة في سورية، وهو التكفير السياسي. فمثلاً أُصدر تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) فتاوى برّدة فصائل الجيش الحر وجماعة النصرة وحركة احرار الشام الإسلامية كافة، وأصدر فتوى برّدة ميليشيا "حراس الدين" في إدلب<sup>(10)</sup>. واعتبر زهران علوش تنظيم الدولة الإسلامية «خوارج العصر» و«كلاب أهل النار»<sup>(11)</sup>، أما الجولاني فقد اتهم الائتلاف وهيئة الأركان التابعة له «بالردة والكفر» لأنهم يسعون إلى «تثبيت حكومة علمانية، والقضاء على مشروع إسلامي راشد»<sup>(12)</sup>. ولا نريد أن نستطرد في العدد الكبير من الفتاوى التي تكفر الميليشيات السنة الأخرى لأنها أكثر من أن تحصى، ما يدل على أن فتاوى التكفير أو الردة هي الأسلوب الأبرز للعمل السياسي لدى تلك الميليشيات.

تقسم السياسة الشرعية السوريين، وعموم سكان الدول الإسلامية إلى «أهل السنة والجماعة» أولاً، وإلى مسلمين ولكن ليسوا من أهل السنة والجماعة ثانيًا، وإلى من هم ليسوا مسلمين ثالثًا. بالنسبة إلى «أبو محمد الجولاني» فإنه على العلويين والدروز وغيرهم من المسلمين من غير السنة أن «يتراجعوا عن الأخطاء التي أدت إلى خروجهم عن دينهم. وأن يسلموا أسلحتهم»، عند ذلك سيكونون في مأمن بل و«أخوة لنا»<sup>(13)</sup>. أما المسيحيون وكل من هو من غير المسلمين، فيتم التعامل معهم

(9) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (د.م. دن، 2004)، ص 984.

(10) <https://www.enabbaladi.net/archives/224746>

(11) <https://www.youtube.com/watch?v=7wKCMoV-JYk>

(12) خطاب مسجل للجولاني بتاريخ 2014-2-25.

<https://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world/syria-فتاويها-مكفرا-2014/02/25/>  
الائتلاف#

(13) لقاء مع أبو محمد الجولاني في قناة الجزيرة بتاريخ 2015-5-27.

وفق قواعد الشريعة الإسلامية المعمول بها تاريخياً، والتي تلزم فقط «القادر على دفع الجزية» أن يدفعها<sup>(14)</sup>. وعلى العموم يستعين الجولاني بما يسمى في التاريخ الإسلامي بسياسة بـ «دفع الصايل»<sup>(15)</sup>، ودفع الصايل هي طريقة في التعامل مع سكان المنطقة يلجأ إليها جيش إسلامي ما عندما يدخل إلى منطقة فيها سكان من غير السنة، وتقوم هذه السياسة على عدم قتالهم مبدئياً إلا إذا بادر الطرف الآخر بالقتال أو الصول عليهم، في محاولة منه لإعطاء غير السنة «مهلة» لمراجعة أنفسهم وتعديل عقائدهم بما يتناسب مع فتاوى ابن تيمية. أما زهران علوش قائد جيش الإسلام فيصف العلويين مثلاً بأنهم «كفرة ومجرمين»<sup>(16)</sup>.

أما بالنسبة إلى مفهوم «حقوق الإنسان» فيعتقد الجولاني أن المسلمين ليسوا بحاجة إليه لأن لديهم «شريعة الله عز وجل»<sup>(17)</sup>. ويتفق معه في هذه النقطة كل القادة والشرعيين في الميليشيات الإسلامية.

أما القضايا التي شغلت شرعي تلك الميليشيات فتتعلق بـ «جلد من يوجد خارج المسجد في أثناء صلاة الجمعة في الأماكن العامة، مراقبة لباس المرأة، قياس طول لحية الرجال، تدمير شواهد القبور المرتفعة، عدم السماح للمرأة بالسفر من دون وجود «محرم»، تدمير الأضرحة، تحصيل الزكاة بالقوة، قضايا الأحوال الشخصية وبيع الأملاك، إيقاف المسلمين على الحواجز والتأكد من أنهم يحفظون الفاتحة وبعض المعلومات الدينية، افتتاح مكاتب للدعوى، الإشراف على الدورات الشرعية لتوعية الناس دينياً، تكفير الميليشيات الإسلامية السنية الأخرى.

هكذا يمكن القول إن السياسة عند هذه الميليشيات تقوم على وصف المجتمع بـ «الردة» مقدمة لحكمه والسيطرة عليه، بل استباحته سياسياً. الأب التاريخي لهذه الفكرة هو، كما ذكرنا، ابن تيمية،

<https://www.youtube.com/watch?v=-hwQT43vFZA>

(14) المرجع نفسه.

(15) المرجع نفسه.

(16) <https://www.youtube.com/watch?v=oCSbBCD-IE0>

(17) <https://www.youtube.com/watch?v=-hwQT43vFZA>

أما أبرز الباعثين الحديثين لها فهو محمد بن عبد الوهاب في الخليج العربي. أما العربون السياسيون المعاصرون لهذا الفكر فهم منظرو تنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية وجهة النصر، وفي مصر هناك المفكر الإسلامي المعروف محمد عبد السلام فرج الذي أصدر كتاب «الفريضة الغائبة»، ويقصد بالفريضة الغائبة إقامة «الخلافة الإسلامية». أما سبيل إقامة هذه الخلافة عند كل أولئك فهي الجهاد، لأن «الجهاد في سبيل الله.. السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد»<sup>(18)</sup>.

في سورية ظهر أيضًا عدد من المنظرين الشرعيين والأيديولوجيين لهذه الفكرة، ومن أبرزهم القادة والشرعيون في جبهة النصر وحركة أحرار الشام الإسلامية وتنظيم الدولة الإسلامية. أما أبرز منظر لتلك الفكرة في سورية فهو أبو مصعب السوري، أحد مساعدي عبد الله عزام وأيمن الظواهري<sup>(19)</sup>. كل الشرعيين والقادة والزعماء في الميليشيات الإسلامية السنية في سورية يعتمدون كتابات أبو مصعب السوري مرجعًا لهم، باستثناء تنظيم الدولة الإسلامية الذي يختلف معه في بعض القضايا التفصيلية، وليس في الرؤية العامة.

ولكن يبقى على العموم ابن تيمية المرجع الأساس والكبير لكل الميليشيات الإسلامية على اختلافها. الجهد الشخصي الوحيد المبذول في كتب التلاميذ هو محاولتهم توصيف الأوضاع الحالية التي يعيشها المسلمون بحيث تتشابه مع الأوضاع التي كانت سائدة أيام ابن تيمية، ومن ثم كل الفتاوى التي أصدرها ابن تيمية تصلح لهذه الأيام، ومن واجب المسلمين العمل بها بشكل حربي ومتكامل، وأن أي تهاون في قضية ما يفتح باب «الارتداد» على مصراعيه.

المقدمة التي ينطلق منها أبو مصعب السوري وغيره من منظري السلفية الجهادية للعمل السياسي هي «غياب الشرع بحكم الله عن كافة بلاد المسلمين»، والذي أدى بدوره إلى «فساد عقيدة التوحيد لدى معظم المسلمين وانتشار البدع واندثار السنة»<sup>(20)</sup>.

(18) محمد عبد السلام فرج، الفريضة الغائبة، محمد عمارة (تحقيق ودراسة)، (القاهرة: شركة نهضة مصر، 2009)، ص 81.

(19) هو عمر عبد الحكيم، أحد كبار منظري السلفية الجهادية في العالم، وهو من مواليد حلب. اعتقلته أميركا عام 2005 في باكستان ثم سلمته للنظام الأسدي. يعده بعضهم الأب الروحي لجبهة النصر، تنقل بين باكستان وأفغانستان والجزائر وبعض البلدان الأوروبية. ألف كتابه المعروف «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية» الذي يعده كثير من الباحثين أهم كتاب في السلفية الجهادية، ولا سيما أنه تفرغ سنوات عدة لكتابته.

(20) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (دم: دن، 2004)، ص 91-96.



وإذا كان الجهاد عند أبي مصعب السوري والميليشيات الإسلامية السنية في سورية، على جبهتين داخلية (مسلمون غالبيتهم مرتدون، يعيشون في كنف الدولة الإسلامية) وخارجية (سكان الدول الأخرى غير المسلمة، وهم كفار) فإن الجبهة الداخلية أخطر على الإسلام من الجبهة الخارجية، والسبب في ذلك أن المسلمين الحاليين قد يصلون، ولكنهم لا يزكون، قد يصلون ويزكون، ولكنهم يتعاملون بالربا، قد لا يتعاملون بالربا، ولكنهم يتهاونون بفريضة الحج، أو قد يؤدون الفرائض كلها، ولكنهم يلعبون الميسر أو يرتكبون بعض الفواحش. النظرية هنا واضحة جدًا، من يخالف في أمر واحد فقط، فكأنما هدم الإسلام، وارتد، ولا بد من الجهاد ضده ومحاربتة، لأن الإسلام كل متكامل، والتهاون في أي جزء منه يعني هدمه كاملاً. أما الخطر فيكمن في أننا قد نكون أمام مجتمع مرتد، ولكن هذا المجتمع يخدعنا بأنه يدين بالإسلام من حيث الشكل، مع أنه ليس من الإسلام في شيء من حيث المضمون، أو بلغة أبو الأعلى المودودي نكون أمام مجتمع «ممزوج من الجاهلية والإسلام»<sup>(21)</sup>. ولعل هذا ما يبرر أن تنظيم الدولة الإسلامية كان يعد السوريين في مناطقه أخطر عليه من قوات النظام الأسد.

ودليل شرعي الميليشيات الإسلامية السنية على مشروعية الجهاد ضد من يخالف، ولو مخالفة واحدة فقط للشريعة الإسلامية، وتسميته بالمرتد، هي حروب الردة التي قام بها الخليفة أبو بكر الصديق ضد من أمتنع عن دفع الزكاة فقط، حيث شن الحروب ضدهم على الرغم من قيامهم بالفرائض الإسلامية الأخرى من صلاة وصيام وغيرها<sup>(22)</sup>. هؤلاء جميعاً يجب قتالهم حتى «يكون الدين كله لله»<sup>(23)</sup>. هذا يعني في النهاية أن كل مسلم يجب قتاله إلى أن يطبق الشريعة بشكل مطلق، وأي مخالفة لأي فريضة أو تعاليم شرعية تحول المسلم إلى مرتد، وقد «استقرت السنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي»<sup>(24)</sup>. وهذا يعني أيضاً أنه يمكن للميليشيات محاربة المسلمين السوريين لمجرد امتناعهم عن الجهاد مثلاً، لأن الجهاد فرض عين، وأن كل «من لم يغز أو تحدته

(21) أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وحياته، (لبنان: دار الفكر الحديث، 1967)، ص 45.

(22) محمد عبد السلام فرج، الفريضة الغائبة، ص 90-96.

(23) المرجع نفسه، ص 96.

(24) المرجع نفسه، ص 89.

نفسه بالغزوات ميثة جاهلية»<sup>(25)</sup>.

ينطلق عموم التيار السلفي الجهادي، منذ أيام ابن تيمية، من مقدمة بدهية لفهم السياسة. تقول هذه المقدمة البسيطة إن الإسلام لم ينتشر بالكلمة والدعوة السلمية، وما إلى ذلك بل انتشر بحد السيف والقوة، وعلينا اليوم أن نسلك الطريق الثاني لأن الطريق الأول لا يعبر عن حقيقة ما جرى في التاريخ الإسلامي. فطريقة إقامة أحزاب إسلامية أو العمل الدعوي السلمي أو النشاط العلمي والفقهي أمور لا يراد منها سوى الهرب من فريضة الجهاد بالسلح، الذي انتشر الإسلامية وترسخ عن طريقه. فلا بديل للمسلم عن «السلح الحاد والقاطع الذي سوف يقطع دابر الكفار»<sup>(26)</sup>.

أما الوضع الفقهي والشرعي لسورية وسكانها فهي أنها «أرض محتلة» بشكل غير مباشر من قبل الغرب الصليبي عن طريق وكلائه من «الحكام المرتدين، وأعوانهم المنافقين»<sup>(27)</sup>. مثلما هي مرتع للبعثيين "الناقمين على الإسلام"<sup>(28)</sup>، وللأقليات العرقية والدينية التي يعتبرونها، إضافة إلى نقتها على الإسلام أيضًا، من أبرز «حلفاء أمريكا وعملائها داخل الصف العربي والإسلامي»<sup>(29)</sup>.

لا شك في أن «التقديس» الذي تكنه السلفية الجهادية في سورية للمرحلة الأولى من ظهور الإسلام، ومحاولتها تركيب الحياة من جديد، بالطريقة نفسها التي تم تكوينها في تلك المدة، هي ما جعلتها تتبنى أيديولوجية منفصلة عن الواقع السوري المعاصر، أيديولوجية تتعامل مع سورية بشكل «عدمي» لا معنى فيه لسورية والسوريين إلا من خلال فتاوى ابن تيمية وتلامذته المعاصرون. إنهم يتعرفون على أنفسهم وواقعهم وحياتهم من خلال الماضي وفتاوى أسلافهم من الجهاديين، ولذلك فإن سورية التي يتعاملون معها هي سورية قبل خمسة عشر قرنًا، وليست سورية المعاصرة.

(25) حديث نبوي أورده فرج في المرجع نفسه، ص 102.

(26) محمد عبد السلام فرج، الفريضة الغائبة، ص 106.

(27) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ص 142.

(28) المرجع نفسه، ص 592.

(29) المرجع نفسه، ص 1109.

### ثالثًا: الموقف من الديمقراطية ونظام الحكم

ثاني المشتركات بين النظام الأسدي وتلك التنظيمات الإسلامية المسلحة هو الموقف من الديمقراطية والحريات والحقوق السياسية عمومًا، وهي أحد المطالب الأساسية للمنتفضين السوريين.

وعلى الرغم من أن النظام الأسدي تعود على الالتفاف على مطلب الديمقراطية عبر إفراغه هذا المفهوم من محتواه عن طريق قوانين الطوارئ، ثم قانون الإرهاب الصادر عام 2012، إضافة إلى تفصيل دستور يسمح بتغول رئيس الجمهورية على السلطات التشريعية والقضائية، واحتكاره مناصب رئيس الجمهورية والقائد العام للجيش والقوات المسلحة والأمن العام للحزب الحاكم والتحالف الحاكم ورئيس المجلس القضائي الأعلى، إضافة إلى احتفاظه بصلاحيات تعيين أعضاء المحكمة الدستورية العليا لنفسه منفردًا، علاوة على الصلاحيات الواسعة التي تعطى للفروع الأمنية، واستئثار الجبهة الوطنية التقدمية بثلاثي أعضاء مجلس الشعب واتحادات العمال والفلاحين ونقابات المعلمين والمحامين وغيرها، إلا أن الميليشيات الإسلامية السنة تتأخر عنه في هذه النقطة بإعلانها صراحة أنها ترفض الديمقراطية، والمؤسسات التي تنبثق عنها، رفضًا قاطعًا. حتى إن غالبية شرعي تلك التنظيمات ومنظرها تحرص على تأكيد هذه النقطة في معظم خطبهم وفتاويهم عندما يتعلق الأمر بشكل الحكم الذي يسعون لإقامته.

يؤكد حسان عبود، مثلاً، رفضه الديمقراطية، ويعد الموقف منها «سيف مسلط على كل من تريد قوى الغرب تغييره من الساحة»، كما يرى أننا «لا حاجة لنا بها»، لأنه «لدينا نظامًا ربانيًا شرعه الله لخلقهم وعباده، وهو استخلفنا في هذه الأرض لنعمرها ونقيم الدين لله عز وجل»، ونحن المسلمين نحتاج إلى «الحريات التي تقيد بالضوابط وليست الحريات التي تولد بغيًا على الآخرين». أما شكل نظام الحكم في سورية المستقبل فهو «نظام تركن فيه الحاكمية للشريعة الإسلامية الغراء... شريعة الله كاملة ولا تحتاج سوى النظر في النصوص واستنباط الأحكام...، الشريعة الإسلامية لها ضوابط ومن يحمل الشرع هو الذي يحكم»<sup>(30)</sup>. أما أبو يزن الشامي (نائب حسان عبود وأحد كبار منظري حركة أحرار الشام الإسلامية وشرعيها) فيعتبر أن «الديمقراطية مبدأ يناقض نص التوحيد»<sup>(31)</sup>.

(30) هذه العبارات كلها صرح بها في مقابلة صحافية في منتصف عام 2013، راجع:

<https://www.youtube.com/watch?v=vEFRdEPe74>

(31) <https://www.youtube.com/watch?v=A2yJm-Rdolk>

موقف زهران علوش موقف مشابه لموقف حسان عبود فالديمقراطية بالنسبة إليه هي «ديكتاتورية الأقوى»<sup>(32)</sup>، ومرجعية شكل الدولة ونظام الحكم يجب أن تكون إسلامية، وليست من التجارب الغربية، لأن «العدل والإنصاف الموجود في الدين الإسلامي، والذي يمنحه للناس، غير موجود في أي نظام آخر»<sup>(33)</sup>. أما قائد ألوية صقور الشام أحمد عيسى الشيخ فيعتقد أن سورية ستكون دولة حديثة "ذات مرجعية إسلامية يحكمها شرع الله"<sup>(34)</sup>، واعتبر أن (الأقليات) «هي جزء من هذه الأرض ولهم حقوق وعليهم واجبات شأنهم شأن المسلمين وجميع الأطياف، والإسلام أرحم من الأم بولدها ولن يظلم أحدا»<sup>(35)</sup>. وعلى العموم فإن وضع السوريين من غير السنة في الدولة المنشودة بالنسبة إلى علوش وعبود والشيخ تحدده القواعد المعمول بها في الشريعة الإسلامية.

أما الموقف اللافت للانتباه من الديمقراطية فهو موقف بعض الميليشيات الذي وصل إلى حد اتهام الديمقراطية بالشرك والتخلف، بحيث تحولت هذه الديمقراطية إلى (آخر) مثلها مثل النظام، إن لم تكن أشد خطراً. يشترك في هذا الموقف هيئة تحرير الشام وتنظيم الدولة الإسلامية وحركة أحرار الشام الإسلامية، الذين تعدوا حدود عدم الاقتناع بالديمقراطية والاكتفاء بالشريعة الإسلامية إلى اعتبارها خطراً حقيقياً يجب مواجهته بالوسائل الممكنة كلها. حتى إنهم يرون أن الخطر الأكبر يأتي من محاولات بعض الأحزاب الإسلامية المزج بين الديمقراطية والإسلام. يحذر أبو مصعب السوري من هذا المزج بتأكيد أنه «فالديمقراطية بصفتها فلسفة ومعتقدات فكرية وبصفتها نظام حكم له تفاصيله وقوانينه، تتناقض تناقضاً كاملاً مع عقيدة الإسلام. وتصادم بشكل واضح جوهر عقيدة توحيد الألوهية كما سبق بيانه. حيث إن عقيدة الإسلام تجعل حق التشريع والتحليل والتحرير والإباحة والمنع لله سبحانه وتعالى. وتجعل له وحده حق الحكم النافذ الملزم الذي تستوجب طاعته الثواب ومخالفته العقاب في الدنيا والآخرة. في حين أن الديمقراطية تنص صراحة على جعل هذا الحق للبشر. وتجعل أحكامهم نافذة واجبة التطبيق بمقتضى إرادة الأغلبية التي تعبر عن إرادة الشعب

(32) <https://www.youtube.com/watch?v=amRyuwoLL3Y>

(33) المرجع نفسه.

(34) مقابلة مع أحمد عيسى الشيخ أجرتها زمان الوصل عام 2014.

<https://www.zamanalwsl.net/news/article45949/>

(35) المرجع نفسه.

وممارسة الأمة لحق السيادة المطلقة... سواء وافق هذا شرع الله أم خالفه. فمبادئ الديمقراطية من هذه الوجهة هي إما كفر بالله أو شرك به. وهذه النقطة هي أساس حرمتها ومصادمتها لدين الإسلام وهي التي تفرعت عنها من بعد كل مناحي تناقضاتها مع عقيدة التوحيد<sup>(36)</sup>. وهذا يعني بكل بساطة أن كل من يؤمن بالديمقراطية، وما تتفرع عنها من مؤسسات وفصل للسلطات، أو يريد أن تسود سورية وغيرها من البلاد، هو بكل بساطة كافر.

هكذا علقت هيئة تحرير الشام الإسلامية لافئات كبيرة في الساحات العامة ومفارق الطرق، في المناطق السورية التي سيطرت عليها، كتب عليها: «تبًا للديمقراطية»، «الديمقراطية طريق التخلف»، «الديمقراطية صنم العصر»، أما حركة أحرار الشام فقد علقت لافئات تقول: «الديمقراطية شرك»، «العلمانية كفر».

من الواضح أن هذه اللافتات وغيرها من سلوكيات من قبل الميليشيات الإسلامية السنية المسلحة موجّهة للسوريين أولاً، ولا سيما المنتفضين الحاملين بالحرية، ولكل من قال في الشوارع "سورية بدها حرية" و"الله سورية حرية وبس". وهي رسالة تحمل طابع الأمر الواضح والصريح والذي لا يقبل جدلاً أو مناقشة، هي فقط أوامر للتنفيذ والالتزام بها، وتحذير بلغة التهديد، بأن كل من لديه تصورات أو حسابات مختلفة عليه أن يعيد النظر بصورة كاملة في تصورات، وإلا سيصنف نفسه في دائرة «الردة» أو «الشرك» ويضع نفسه في الموقف الذي وضع نفسه فيه «أبو لهب».

عدم إيمان تلك الميليشيات بالديمقراطية، وغياب ثقافة قبول الآخرين على قاعدة الهدف المشترك، أو حتى المنهج المشترك أدى إلى انزلاقها، وبسهولة، إلى حل خلافاتها في ما بينها عن طريق السلاح. وذلك بخلاف توقعات عدد من الباحثين الذين تحدثوا عن إمكان أن تتجمع تلك الميليشيات في تكتل عسكري واحد ينسق في ما بينها، على قاعدة الهدف والمصير المشتركين<sup>(37)</sup>. ولذلك نجد أنه حتى في حال حصول تحالف مشترك، فإنه سرعان ما ينهار، وينقلب المتحالفون إلى متصارعين<sup>(38)</sup>.

(36) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ص 1041.

(37) ذهب إلى مثل هذا الرأي الباحثة في شؤون الشرق الأوسط نعومي راميرث دياث، راجع:

نعومي راميرث دياث، مستقبل السلفية المقاتلة في سورية، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2014)، ص 7.

(38) أبرز تجارب الاتحادات العسكرية هناك «جيش الفتح» الذي ضم جبهة النصرة، حركة أحرار الشام الإسلامية، جند الأقصى، جيش السنة وفيلق الشام. وقد تأسس هذا التحالف في آذار 2015 غير أنه تفكك في العام نفسه إثر انسحاب جند الأقصى ثم جبهة

يضاف إلى ذلك أن التكوين الديني والسياسي المتطرف لكوادر وقيادات تلك الميليشيات جعل الغلو في مواقفهم هو سيد الموقف، ولا سيما أن الصراعات الشخصية ومصالح النفوذ هي التي تتحكم بمواقفهم أكثر من الأيديولوجية والمصير المشترك والمصالح العليا، وهي سلوكيات تعشش عمومًا في التنظيمات والأحزاب والحكومات ذات التكوين الدكتاتوري.

تذكر هذه الخلافات والصراعات بين تلك الميليشيات بالخلافات بين قيادات حزب البعث والأحزاب القومية في سورية، مثلما تذكرنا بالصراع الشهير بين جناحي حزب البعث في العراق وسورية في ثمانينيات القرن العشرين. من دون أن ننسى الخلاف الشهير بين حزب البعث السوري وجمال عبد الناصر على الرغم من التوجه القومي لكل منهما.

فالصراعات التي تنتشر داخل الكيانات الإسلامية الجهادية والبعثية والنظام الأسدّي تحكمها مصالح القائد الشخصية وخلافاته من المنافسين المحتملين، هذا القائد الذي يحول بدوره الحزب أو الميليشيا أو الدولة إلى محض كيان تابع له شخصيًا. بحيث لا تعود الأيديولوجيا والمصالح الحقيقية تلعب أي دور حقيقي. ولعل هذا ما يفسر اعتراف أبو محمد الجولاني -مثلًا- بأن تنظيم الدولة الإسلامية ضرب مقاتلي جبهة النصرة من الخلف في أثناء مهاجمة الثاني لجيش النظام الأسدّي في القلمون.

#### رابعًا: المؤسسات التنفيذية

أما الكيانات التي أنيطت بها أمور القضاء والتعليم والأمن والخدمات وقضايا الأملاك والمنازعات الشخصية فهي «الهيئات الشرعية». وهذه تشبه إلى حد كبير فروع أمن النظام الأسدّي مع صلاحيات قضائية واسعة، مثلما لها مهمات تشبه مهمات مؤسسة الإفتاء ووزارة الأوقاف والإعلام والمؤسسات الحزبية البعثية. تنقسم الهيئات الشرعية في تنظيم الدولة الإسلامية وهيئة تحرير الشام -مثلًا- إلى قسمين، الأول يهتم بقضايا الشؤون المدنية من زواج وطلاق وإرث والتنازع على الأملاك، إضافة إلى

---

النصرة. أما الجبهة الإسلامية التي ضمت حوالي سبع ميلشيات منها جيش الإسلام، حركة أحرار الشام الإسلامية، لواء الحق، ألوية صقور الشام، الجبهة الإسلامية الكردية وغيرها، فلم تكن أحسن حالًا من جيش الفتح، وتلاشت عام 2015، حيث بقيت في أغلب أوقاتها كيانًا شكليًا.

متابعة أمور الكهرباء والماء، وما إلى ذلك، وقسم ثان يهتم بالإشراف العام على المجتمع، ومدى التزام الناس بتطبيق الشريعة الإسلامية، وفض النزاعات بين الفصائل، وتعيين خطباء المساجد، وتحديد مضمون خطبهم، مثلما أخذت على عاتقها تنظيم أمور التعليم والإعلام، وهذه قضايا يهتم بها قسم "الدعوى"، القسم الأكثر نفوذًا وصلاحيات في الهيئات التشريعية.

كان لإنشاء تلك الهيئات هدفان أساسيان؛ الأول الحلول محل مؤسسات الدولة، ولاسيما القضاء والتعليم ودوائر السجل المدني والأملاك العقارية، أما الهدف الثاني فهدفه ضبط المجتمع سياسيًا وأمنيًا وإعلاميًا ودينيًا.

لجأت تلك الميلشيات إلى الهيئات، لأنها لا تعترف أصلاً بالقوانين الوضعية الحديثة، ولا ترى مؤسسات الدولة إلا بوصفها كيانات تقام عبر قواعد «السياسات الشرعية» التي تعطي الفقهاء دور قيادة المجتمع. وعلى هذا فإن هذه الهيئات الشرعية مثلًا تضرب عرض الحائط بمبدأ فصل السلطات المعروف، كما أنه لا يوجد من يراقبها. وعلى ذلك، فإذا كان النظام الأسدي يفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة الأمنية، ويجعل من الثانية متحكمة ومراقبة للأولى، فإن تلك الميلشيات تدمج بين كل السلطات في الهيئة الشرعية. أما محاسبة مسؤول في الهيئات الشرعية أو معاقبته فتم غالبًا بصورة فردية، وتدخل من مسؤول ذي نفوذ أكبر.

تتوجس الميلشيات الإسلامية السنية من «القوانين الوضعية الحديثة»، وتعتبرها العدو الأول للشريعة الإسلامية، ولا ترى أي إمكان للتكامل أو الالتقاء معها على قاعدة شمولية القيم الإنسانية. القوانين الوضعية أمر يثير قلق منظري السلفية الجهادية السورية، لأنها تسحب البساط من تحت رجلهم. ففي حال القبول بتلك القوانين، ولو قبولاً جزئياً، سيتحول الحل والربط في أمور الناس والمجتمع إلى القضاة والموظفين المدنيين والبلديات والوزارات والنقابات. وهذا يعني أن رفض القوانين الوضعية أمر مصيري وجوهري بالنسبة إلى تلك الميلشيات، ولعل هذا ما يفسر العدائية الشديدة التي يبديها -مثلاً- أبو مصعب السوري وأبو محمد الجولاني وحسان عبود وهران علوش تجاه إمكان المزاجية بين تلك القوانين والشريعة الإسلامية.

يقول أبو مصعب السوري "لا شك أن من حكم هذه القوانين (يقصد القوانين الوضعية) كافر يجب قتاله بإجماع المسلمين"<sup>(39)</sup>. ولذلك فإن كل دساتير الدول الإسلامية الحديثة وقوانينها هي

(39) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ص 147.

قوانين مرفوضة رفضاً كاملاً، لأنها تمزج بين الشريعة الإسلامية وتلك القوانين، وتجعل الشريعة محض مصدر من مصادر التشريع، وهذا المزج يعد أحد الأسباب الرئيسة في واقع الفسق والفجور والذل والهوان الذي يعيشه مسلمو هذا العصر<sup>(40)</sup>. القوانين الوضعية مرفوضة منذ أيام ابن تيمية الذي اعتبر "الياسا"، وهي مجموعة قوانين حكم بموجبها الملك التتري جنكيز خان بلاد المسلمين، سبب بلاء المسلمين، وتراجعهم<sup>(41)</sup>.

أما شخصية «الشرعي» في الهيئات الشرعية التي استحدثتها الميليشيات الإسلامية السنية شبيهة بشخصية المساعد أول في الفروع الأمنية السورية، فهو على الأغلب ليس لديه تأهيل قضائي أو قانوني كافي، مثلما يتم اختياره من الشخصيات العدوانية واللئيمة التي تحمل تقدير منخفض للناس والمجتمع عموماً.

### خامساً: رعايا أم دهماء؟

تصف غالبية كتب السياسة الشرعية عامة المسلمين بـ «الدهماء». هكذا يصف أبو مصعب السوري السوريين ومسلمي هذا العصر من سكان البلاد العربية والإسلامية عموماً بالقول "أما الدهماء والعوام فقد نسي معظمهم الله فأنساهم أنفسهم. وأصبح أكثرهم يعبد الحكومات أو يعبد المال أو يعبد أهواء نفسه"<sup>(42)</sup>. أما أكثر ما يلفت الانتباه في بلاد المسلمين فهو "انتشار الفسق والعصيان والمجاهرة بالمنكرات"<sup>(43)</sup>.

(40) يشير الباحث المتخصص في شؤون الحركة السلفية الجهادية حسن أبو هنية إلى أن القاعدة كانت تجهز نفسها إلى خوض صراع عسكري وايدولوجي طويل الأمد ضد الأحزاب الإسلامية الاصلاحية في حال وصولها للسلطة بعد ثورات الربيع العربي. راجع: - حسن أبو هنية، الجهادية العربية- اندماج الأبعاد: النكاية والتمكين بين «الدولة الإسلامية» و«قاعدة الجهاد»، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 7.

(41) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ص 147.

(42) المرجع نفسه، ص 97.

(43) المرجع نفسه، ص 98.



رصدنا حوالي ثلاثين صفة يتصف بها مسلمو هذا الزمان عند "أبو مصعب السوري" في كتابه «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية»، وهذه الصفات هي: الرياء، النفاق، الغيبة، النميمة، التحاسد، الكذب، الغش، الكسب الحرام، عقائدهم مشوهه، منحرفون، أهل أهواء، مسبحين بحمد السلاطين، متعلقون بالأموات والمشعوذات، يعتقدون بالخرافات والبدع، يعتقدون برؤوسهم أنهم ينفعون ويضرون، يعبدون المال، يعبدون الاحبار والرهبان، يعبدون أهواء انفسهم، يعبدون القنوات الفضائية، يستنون بسنن المغنين والراقصات، يأكلون أموال بعضهم بالباطل، يمتنون الفساد والرشوة والسرقا والاحتيال والنهب، تنتشر بينهم الخيانات الزوجية والرذيلة، يتفشى بينهم الزنا، ينتشر الطلاق، يتهيؤون لاتباع المسيح الدجال لو خرج عليهم، تنتشر بينهم فلسفات الإلحاد وأفكار العلمانية، يمرقون من الدين عن طريق بدعة (الإسلام المعتدل)، علماء دينهم هجروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...<sup>(44)</sup>.

تفتح مثل تلك التوصيفات للمسلمين الباب على مصراعيه للتعامل مع أي سوري وفق نظرة استعلائية/ إقصائية/ استبعادية تصل إلى حد التعمد بانتهاك خصوصياته وأملاكه وحقوقه، علاوة على التخويف وضرب عرض الحائط بأمانه، والخدمات التي تقدم له، وتحويله إلى طرف مدان ومرفوض ومشكوك به، في محاولة واضحة من قبل تلك الميليشيات استنساخ تجربة فروع استخبارات النظام الأسدي.

أما السوري، بالنسبة إلى الاستخبارات الأسدية، متهم إلى أن يثبت العكس. فهو معارض أو عميل أو خائن، أو «يمين مشبوّه»، أو «يضعف الشعور القومي»، أو مندرس، أو «مغرر به». وهو بالنسبة إلى الطرفين المتنافسين عليه أن يقدم الولاء والطاعة، وأن يوافق، ويشرح نفسه بطريقة ترضيهم، وأن يقوم بكل ما يطلب منه حتى يحصل على الرضا والقبول، ويرفع التهم والشكوك عن نفسه. هي دائرة جهنمية تجعله يفكر فقط بسلامته وأمنه، وتجنب كل ما لا تحمد عقباه. سجن أيديولوجي كبير ليس أمام السجين فيه سوى نيل رضا السجان حتى يحصل على حرية التنقل بين الزنانات، وزيارات دورية، ونوعية طعام مقبولة.

الأوصاف التي يوصف بها السوري من قبل تلك الميليشيات تشبه إلى حد كبير الأوصاف المتداولة عن السوري ضمن المؤسسة العسكرية/ الأمنية السورية. في سورية للمؤسسة العسكرية/ الأمنية منزلة استثنائية، بوصفها هي التي تحكم، ولذلك يعبر ضباط تلك المؤسسة عن حقيقة ما يضمرون

(44) المرجع نفسه، ص 90 – 100.

تجاه السوري بحرية غير موجودة في المؤسسات الأخرى. الفرق بين أوصاف كل من الطرفين أن أوصاف الميلشيات الإسلامية السنية للسوريين تركز على لأخلاقيتهم وعدم تدينهم، وعلى ذلك لا بد من الوصاية عليهم أخلاقياً ودينياً. أما أوصاف العسكر للسوريين فيغلب عليها أسماء الحيوانات التي يظنون أنها «غبية»، علاوة على التنميطات المناطقية التي تحمل كل مجموعة جغرافية أو قومية أو دينية سورية عدد من الصفات السلبية. وما اللقطة المشهورة للمواطن السوري الذي قال غاضباً على شاشات الفضائيات: (أنا إنسان مو حيوان) إلا ردة فعل عفوية على إلحاح المؤسسات الأمنية/العسكرية على تنميط السوري بوصفه حيوان، ومعاملته على هذا الأساس. وفي الحالتين الهدف واحد، الإنسان اللاأخلاقي يحتاج إلى وصاية، والإنسان الغبي يحتاج إلى وصاية، مثلما هناك في الحالتين جرعة زائدة من الاحتقار بقصد الاستبعاد والإقصاء.

وكما يحتفظ النظام الأسدّي بلائحة تهم جاهزة يشهرها في وجه أي سوري ويطلب منه أن يبرئ نفسه منها، من قبيل تهم الانتماء إلى الإخوان المسلمين واليمين العراقي المشبوه في ثمانينات القرن المنصرم؛ كذلك دأبت الميلشيات الإسلامية على توجيه تهم سياسية جاهزة للسوريين من قبيل: التعامل مع النظام الأسدّي، العلمانية، الانتماء لمنظمات المجتمع المدني، أما أخطر تلك التهم فهي الانتماء إلى ميلشيات أخرى منافسة. وهذه التهمة الأخيرة استخدمتها تنظيم الدولة الإسلامية على نطاق واسع للنيل من خصومة من الميلشيات الأخرى، وقتل آلاف السوريين عن طريقها.

وعلى العموم يركز النظام الأسدّي والميلشيات الإسلامية على تخويف الناس من الحرية والاستقلالية. فالمسلمون بالنسبة إلى الميلشيات الإسلامية ليسوا أفراداً، ولا يعرفون كيف يديروا حياتهم بأنفسهم، وليس لديهم القدرة على تكوين عقائدهم وقيمهم ومبادئهم الخاصة بمفردهم، أو بالاستناد إلى عقولهم وتجربتهم الشخصية، مثلما هم أيضاً غير مؤهلين لفهم الشريعة الإسلامية بذاتهم، بل هم بحاجة، دائماً وفي التفاصيل كلها، إلى أوصياء وفقهاء وعلماء، ومن دون إرشاد هؤلاء وتوجيههم، فإن المسلم سيضيع لا محالة في بحور الفسق والكفر والشرك والسفاهة.

تدرب السلفية الجهادية والنظام الأسدّي السوريّين على «الهرب من الحرية» إذا استخدمنا لغة إريك فروم. ينمون لديهم «الميل إلى التخلي عن استقلال النفس الفردية ودمج النفس في شخص آخر خارج النفس للحصول على القوة التي تنقص النفس الفردية»<sup>(45)</sup> بحيث يشعر السوري بضرورة

(45) إريك فروم، الخوف من الحرية، مجاهد عبد المنعم مجاهد (مترجمًا)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972).

«الخضوع للأوامر»، وأنه يحقق ذاته بهذا الخضوع. مثلما أن الميل للتخلي عن النفس الفردية غالبًا ما ترافقه رغبة في «جلد الذات» بطريقة تجعل المسلم يكيل لنفسه التهم حتى الأعداء لا يجرؤون على توجيهها<sup>(46)</sup>. ولعل هذا ما يبرر من جهة وصف أبو مصعب السوري للسوريين بالثلاثين صفة السلبية التي أشرنا إليها، ويبرر من جهة ثانية تقبل المسلمين السوريين تلك الأوصاف إذا كانت تصدر من رجل دين.

حتى اللباس استخدم رمزًا للتقليل من منزلة السوريين. فالميليشيات الإسلامية السنية اعتمدت الزي الذي كان يرتديه العرب الأفغان لباسًا شبه رسمي لمقاتليها، أما النظام فاستخدم اللباس الرسمي الأوروبي للتعبير عن هويته من حيث إنه نظام يتبنى نموذج الدولة الحديثة. وفي الحالين تم تجاهل الزي الشعبي السوري. امتازت الميليشيات بأن مظهر مقاتليها أخذ يتميز بإهمال الهندام وتطويل شعر اللحية والرأس وتركه منكوشًا في محاولة لاستخدام المظهر العام بوصفه «عامل تخويف».

من دون أن ننسى الاستقواء اللغوي، حيث اعتمدت الميليشيات على اللغة العربية الفصحى، وحرص اتباعها على استخدام لغة عربية تكثر من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، حتى من قبل من هم أشباه الأميين، حيث أصبحت اللغة تعبر عن هوية ومنزلة وسلطة تشبه اللهجة العلوية بالنسبة إلى النظام الأسدي.

أما الطريقة العملية لجعل السوريين يقدمون الولاء للميليشيات من دون أي شروط فهي «البيعة»، وحجة هذه الميليشيات الحديث النبوي الشهير الذي يردده كل شرعي الميليشيات وكبار المنظرين الأيديولوجيين من دون استثناء، والذي يقول: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»<sup>(47)</sup>. غاضبين النظر عن الخلافات الفقهية حول معاني هذا الحديث، حتى إن جهة النصره حولته إلى لوحات حائطية تزين بها الساحات ومفارق الطرق العامة<sup>(48)</sup>. أما تنظيم الدولة الإسلامية فقد أعلن القتال على كل من لا يبايعه، مثلما تحولت المبايعة عمومًا داخل أوساط الميليشيات إلى شكل من أشكال إظهار الولاء والخضوع والمشاركة. القواعد المتبعة في مبايعة زعماء الميليشيات

(46) المرجع نفسه، ص 118.

(47) أورده مسلم في صحيحه تحت رقم 1851/58.

(48) <https://www.youtube.com/watch?v=DIr1HoHJIQA>

الإسلامية السنوية مهمة، ويسودها الغموض ونوع من السرية، حيث يقوم زعيم أحد الميلشيات وبعض المتعاونين معه من علماء دين بتشكيل مجلس شورى أو جماعة من «أهل الحل والعقد» الذين يقومون بدورهم بمبايعته، بوصفهم ممثلين للمسلمين، هؤلاء المسلمون الذين لا يعرفون بدورهم أي شيء عن هذه اللعبة، ولا من هم هؤلاء العلماء.

يستند شرعيو الميلشيات الإسلامية إلى مصطلح «أهل الحل والعقد» الواسع المعنى وغير الموصوف وصفاً دقيقاً، وبناء على ذلك يستطيع أي زعيم لميلشيا إسلامية عسكرية أن يجمع حوله عدداً من الأشخاص يتمتعون بـ «الشوكة»، التي تعني وجهاء منطقة ما وأقويها، ثم يقوم هؤلاء بمبايعة الزعيم. وأهل الحل والعقد، بالنسبة إلى الميلشيات الإسلامية السنوية هم عدد من علماء السلفية الجهادية وداعميها، وهم على الأغلب مقربون من الزعيم أو متحالفون معه. هكذا يمكن لأي زعيم أن يجمع عدداً ممن يعتبرهم هو علماء، ويجعل منهم مجلس شورى أو «أهل حل وعقد»، ثم يقوم هؤلاء بمبايعته<sup>(49)</sup>. هكذا فعل تنظيم الدولة الإسلامية وجماعة النصرة وحركة أحرار الشام الإسلامية.

ويعتقد أولئك أنه في المبايعة يكتفى بعدد قليل من أهل الحل والعقد، قد يكون 6 فقط، مستشهدين بما حصل مع الخليفة عمر بن الخطاب في حادثة تعيينه لـ 6 أشخاص لكي يختاروا أميراً للمؤمنين خلفاً له. الشرط الثاني للبيعة هو أن عامة المسلمين لا يجوز لهم مبايعة شخص ما إلا بعد أن يبايعه أهل الحل والعقد أولاً، وهذا ما قام به أبو بكر البغدادي الذي طالب من السوريين بمبايعته بعد أن بايعه مجلس شورى المجاهدين الذي أنشأه إثر نشوب خلافات مع قائد تنظيم القاعدة أيمن الظواهري عام 2012، هذا المجلس الذي لا أحد يعرف كيف تشكل وممن يتألف. وعلى اعتبار أن هناك حديث نبوي يحصر الإمامة في «قريش»، فقد أضاف أبو بكر البغدادي صفة القرشي إلى كنيته، لكي يزايد على منافسيه من زعماء الميلشيات الأخرى.

غير أنه على الرغم من أن تنظيم الدولة الإسلامية وهيئة تحرير الشام وحركة أحرار الشام الإسلامية<sup>(50)</sup> حسمت مسألة البيعة وشكل الدولة ودور «أهل الحل والعقد» إلا أن بقية الميلشيات،

/حكم-نكت-البيعة-ومنها-أهل-الحل-والعقد-ل-<https://thabat111.wordpress.com/2014/03/23/> (49)

(50) اغتيل غالبية أعضاء مجلس شورى حركة أحرار الشام الإسلامية في أيلول / سبتمبر 2014 إثر تفجير مقر لهم في إدلب، حيث كان المجلس يعقد اجتماعاً موسعاً ضم إضافة لقائد الحركة كل من معي الدين الشامي نائب حسان عبود، أبو يزن الشامي أحد أبرز

ولا سيما جيش الإسلام، بقيت تؤجل الموضوع إلى حين سقوط النظام، على الرغم من أن تصريحات زعمائها كانت واضحة في ما يتعلق بتحكيم الشريعة الإسلامية وترك القرارات المصيرية لعلماء المسلمين وأهل الحل والعقد.

يذكر أن هذه اللعبة يلعبها حافظ الأسد منذ دستور عام 1973، حيث يختار بشكل شخصي عددًا من الناس يقومون بكتابة دستور يعطيه صلاحيات شبه مطلقة، ثم يعرض الدستور على مجلس الشعب، الذي يقوم هو ومعاونوه بتحديد ثلثي أعضائه. كما أن الدستور، بدوره، يجعل للقيادة القطرية لحزب البعث الحق الحصري في اقتراح من يترشح لرئيس الجمهورية، بحسب المادة 81 من دستور 1973<sup>(51)</sup>. طبعًا القيادة القطرية يختارها الرئيس في أثناء المؤتمرات القطرية التي تجري كل أربع سنوات.

وليس من باب المصادفة أن يطلق النظام الأسدي على انتخاب رئيس الجمهورية مصطلح «البيعة» على الرغم من أنه يقدم نفسه على أنه نظام علماني، بل معادٍ للأيديولوجية السلفية الجهادية على وجه الخصوص. وكما أن البيعة أبدية للإمام كذلك كان شعار «إلى الأبد يا حافظ الأسد» معلق على جدران المؤسسات الحكومية السورية في أثناء إجراء الانتخابات الرئاسية. المطلوب من السوري في الحالين أن يبايع فقط، ويقدم الطاعة المطلقة لمن يحكمه.

ولعل هذا ما يفسر أن مبايعة الأمير الإسلامي من أسهل الإجراءات التي يمكن لسوري أن يقوم بها على الإطلاق، وهي غالبًا ما تتم من دون أي توثيق ورقي أو قضائي أو قانوني، تجري بطريقة تشبه الطريقة التي يشتري السوري بها الخضار لعائلته في طريق عودته إلى البيت. قد تجري في الجوامع أو على الحواجز، وليس لها تاريخ معين، أو سن محددة.

أما النظام الأسدي فيجري انتخابات شكلية، لدرجة أن هناك شكوك بعدم إجراء عملية إحصاء دقيقة للبطاقات الانتخابية. فنتيجة الانتخابات كانت تعلن بعد ساعات قليلة فقط من إغلاق صناديق الاقتراع. علاوة على أن الرئيس يستطيع تزوير النتائج وقف الصلاحيات التي يمنحها

شرعي الحركة، أبو طلحة المخزومي القائد العسكري للحركة، أبو عبد الملك الشرعي وغيرهم، وجمعهم قتلوا في ذلك التفجير.

(51) راجع المادة 81 من دستور 1973:

<http://emediatc.com/PublicFiles/File.201973%العربية%20الجمهورية%20السورية.pdf>.

له الدستور، فالمحكمة الدستورية التي تشرف على الانتخابات، وتبت في الطعون، في حال حصول تزوير، هي معينة أصلاً من قبل الرئيس بموجب المادة 141 من الدستور السوري الذي اعتمد عام 2012<sup>(52)</sup>.

هكذا يعد مفهوم الطاعة مركزياً بالنسبة إلى الفريقين، حيث «التراتبية الصارمة» و «الكاريزما» و «الولاء المطلق» و «الغياب الكامل للنقد». إذ تعد هذه المفهومات مفهومات مفتاحية في الثقافتين الدينية والعسكرية، فمركزية القواد العسكريين شبيهة بمركزية رجال الدين، وهامشية العساكر شبيهة بهامشية المواليين. ومثلما يأخذ المتدين شكل تدينه من تعاليم شيخه ليتعلم على يديه أصول الدين وقواعده الشرعية، كذلك لا يأخذ العسكري أوامره إلا من قائده. ومثلما يستغل القائد العسكري مكانته للحصول على مكاسب مادية أو اجتماعية أو سياسية، كذلك يسعى رجال الدين إلى استغلال معرفتهم الدينية واحترام المجتمع للدين، لتحقيق مكاسب سياسية واجتماعية.

ومن سخرية الوضع أن سنة سورية يعدو أكبر الخاسرين عندما تسيطر الميليشيات الإسلامية السنية، وعندما يسيطر النظام الأسد، على حدٍ سواء، على مستوى عدد القتلى أو التدمير أو التهجير. فبالنسبة إلى الميليشيات الإسلامية فإن السوريين السنة وتأمين حياتهم أمر لم يكن يعني أي شيء بالنسبة إلى تلك الميليشيات، ولذلك كانوا مثلاً يخوضون معاركهم في مناطق وجود المدنيين، مثلما كانوا ينسحبون من المعارك من دون تأمين الناس العاديين. السوريون السنة هنا يتكون ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم. حتى جهد الإغاثة وتأمين مخيمات للاجئين أمر ترك للمنظمات الإغاثية، ولم تشعر تلك الميليشيات أنها معنية بالأمر. أما بالنسبة إلى النظام فقد عد الثورة ثورة السنة، لأنهم يشكلون الأغلبية في سورية، مثلما كان يتهم سكان المناطق التي تسيطر عليها تلك الميليشيات بأنهم «حاضنة شعبية» لها. ولذلك كان تدمير المدن السنية وتهجير أهلها أمر في غاية الأهمية بالنسبة للنظام الأسد لإحداث تغيرات ديمغرافية حساسة، كثر الحديث بين السوريين عنها.

يضاف إلى ذلك أن تقسيم السوريين إلى طوائف ومذاهب وأعراف يعد أمراً حيويًا بالنسبة إلى الطرفين اللذين يتصارعان على السوريين، وذلك لسببين: الأول تحقيقاً لمبدأ "فرق تسد" المعروف والذي يوفر إمكان ضرب المكونات بعضها ببعض، ودفعها إلى عدم الثقة، والتريص بعضها ببعض. أما السبب الثاني فهو جلب المواليين على أساس ديني أو طائفي. الفرق الأساسي بين الطرفين أن

(52) راجع نصوص دستور 2012:

[https://www.constituteproject.org/constitution/Syria.2012\\_pdf?lang=ar](https://www.constituteproject.org/constitution/Syria.2012_pdf?lang=ar)

الميليشيات الإسلامية السنية واضحة في طائفيتها وفي تعاليمها وفتاويها، بينما هي مضمرة لثيمة لدى النظام الأسدي، بحيث تجلب الموالين للنظام الأسدي من الطوائف غير السنية، والقوميات غير العربية.

## سادسًا: الحرب الأبدية

ينظم المجتمع الإسلامي بالنسبة لتلك الميليشيات على أنه مجتمع يعيش حالة حرب أو جهاد إلى الأبد، وأن مهمات نشر الإسلام وشريعة أهل السنة السمحة، ومحاربة أهل البدع والمرتدين، والغرب الكافر لن تنتهي إلا عندما تسود تلك الشريعة كامل الكرة الأرضية، وتكون « دول إسلامية» في أرجاء المعمورة كافة. وأن هذه المهمة المقدسة تتطلب بناء المجتمع بوصفه مجتمعًا محاربًا، أو مجتمعًا من أجل القتال، وأن هذا القتال أو الجهاد ليس أمرًا طارئًا بل هو حالة دائمة، وأن تهاون الأمة عن هذا القتال هو الذي تسبب بحالة التراجع والهوان التي تعيشها المسلمون اليوم.

تقول اللافتات التي علقتها جبهة النصرة في شوارع البلدات السورية عام 2013 «نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا»<sup>(53)</sup>، لأن إقامة الدولة الإسلامية هي «فرض عين» على كل مسلم، أي إن من يتهاون أو يتقاعس عن القيام بهذه المهمة يسقط صفة المسلم عن نفسه. يقول حسان عبود في إحدى تغريدات على تويتر في شهر آب/ أغسطس 2014 عام «إن قيام دولة إسلامية عادلة راشدة هو هدف إستراتيجي غائي عندنا»<sup>(54)</sup>.

إن سورية هي محض بقعة جغرافية صغيرة بالنسبة إلى تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة اللذين لهما فروع في دول كثيرة. وهذا يعني أن الجهاد لن ينتهي أيًا كانت الأوضاع في سورية. وأن مواجهة القوى الغربية الظالمة، والطغاة العرب، والمتعاونين معهم، والأحزاب الإسلامية التي تشوه صورة الإسلام بمزاوجتها بين الديمقراطية والإسلام، وغالبية المسلمين المرتدين؛ هدف كبير يحتاج لصراع أجيال.

(53) <https://www.youtube.com/watch?v=DIr1HoHJIQA>

(54) [https://twitter.com/HassanAbboud\\_Ah/status/469100143934177281](https://twitter.com/HassanAbboud_Ah/status/469100143934177281)

استراتيجية الإسلاميين الجهاديين والقوميين البعثيين تكاد تكون واحدة حول الموقف من أودية الجهاد والنضال. يلح آل الأسد وأدبيات حزب البعث الحاكم على أن الصراع مع الأعداء هو صراع «أجيال»، وعلى أن هدف السياسة في سورية الأسد هو خارج سورية، يتمثل بتحرير الأراضي العربية المحتلة في قارتي آسيا وأفريقيا، وتحقيق الوحدة العربية وأقامه مجتمع اشتراكي عربي. ناهيك عن محاربة الإسلام السياسي والإمبريالية العالمية والقوى الرجعية العربية، حتى إن المجلة الناطقة باسم حزب البعث السوري لها اسم دلالي هو «المناضل»، مثلما كان أكثر وصف يوصف به حافظ الأسد هو «الرفيق المناضل»

والصراع ليس فقط إلى الأبد بل هو شبه أزلي أيضاً. بالنسبة إلى منظري السلفية الجهادية في سورية هو صراع مع قوى الكفر والأديان الأخرى منذ أن ظهر الإسلام قبل نحو خمسة عشر قرناً، وأنه سيستمر لأن الغرب كان يتآمر على الإسلام والمسلمين، وسيبقى كذلك. يعتقد أبو مصعب السوري أن المسلمين واجهوا حملتين صليبيتين كبيرتين؛ الأولى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، والثانية منذ القرن السابع عشر حتى منتصف القرن العشرين، أما الحملة الصليبية «الثالثة»<sup>(55)</sup>، وهي الأشرس والأقوى والمستندة لأساليب عسكرية ومخابراتية وأيديولوجية عالية المستوى، علاوة على استخدام وسائل الإعلام والمناهج التربوية، فقد بدأت منذ زراعة إسرائيل في قلب المنطقة، وهي مستمرة حتى الآن. كما أن مناطق الصراع شملت باكستان وأفغانستان والهند وفلسطين والعراق والبوسنة والهرسك والجزائر وسورية والسعودية ومصر واليمن وتونس والأردن وليبيا وطاجكستان وأوزبكستان، بالإضافة لمحور أمريكا الذي يضم معها إسرائيل وبريطانيا، ومحور أوروبا الذي يضم بشكل رئيسي فرنسا وألمانيا وروسيا وبلجيكا وإسبانيا وباقي دول الاتحاد الأوروبي ودول حلف الناتو التي يضم (26) دولة<sup>(56)</sup>.

تغذي الميليشيات الإسلامية السنية والنظام الأسدي نظرية الحرب الأبدية بعقدة «الشعور بالذنب». على كل المسلمين الشعور بالذنب من أنفسهم لأنهم لم يقوموا بواجبهم في إقامة الخلافة الإسلامية، دولة شرع الله على الأرض. وليس أمامهم سوى التكفير عن ذلك الذنب والتقصير، وهذا يتم عن طريق مبايعة تلك الميليشيات والانخراط في مشروعاتها. هكذا يتحول كل شخص لا يتبنى البراديم الجهادي، ولا يمشي في طريق تلك الميليشيات ويؤمن بفكرها ويعمل على إعلاء كلمتها، يتحول

(55) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ص 30.

(56) المرجع نفسه، ص 1090.



إلى شخص مدان وعاص ومذنب ومرتد، وعليه أن يخجل من نفسه وعائلته ومجتمعه وربه. بل إلى شخص يعادي شريعة الله وسنة نبيه والعياذ بالله. هكذا يستدمج الشعور بالذنب في العقيدة الدينية للناس، ويصبح جزءاً منها، بحيث يشعر كل مسلم بالذنب بشكل شبه أتوماتيكي. وبذلك تصبح المسألة ليس في حقيقة الشعور بالذنب وكيف تمت صناعته بل فقط في كيفية التكفير عنه.

أعلى درجات التكفير عن الذنب هي التضحية بالحياة، ولعل هذا ما يبرر كثرة «الاستشهاديين» في صفوف الميليشيات الإسلامية السنية. ولا سيما أن ما يضحى به هنا هو الحياة الدينا التي ليس لها أي تقدير، فهي ليست أكثر من محطة عبور إلى حياة الآخرة. كل من تنظيم الدولة الإسلامية وهيئة تحرير الشام وحركة أحرار الشام استخدمت أسلوب العمليات الانتحارية، سواء ضد النظام الأسدي أم ضد بعضها بعضاً.

أما النظام الأسدي فيستند إلى الشعور بالذنب القومي الذي يجعل من السوري مذنباً وعليه أن يحرر فلسطين، والجولان، وجزيرتي سبتة ومليلة في المغرب، والجزر الإماراتية التي تحتلها إيران، ويقف مع أرتيريا وكل الشعوب المظلومة التي تواجه الاستعمار وقوى الهيمنة الغربية في قارتي آسيا وأفريقيا.

بالنسبة إلى الفريقين، فإن السوري الذي يطالب بحقوقه ومصالحه العامة أولاً، وعدم إعطاء الأولوية للأهداف القومية أو الإسلامية هو خائن وعميل، أو مرتد وكافر. هو شخص مرتد، وعار على دينه، أو مواطن غير صالح، ومتهم بإضعاف الشعور القومي.

هكذا يتم تطويق السوريين بدائرة الذنب المفرغة التي تنهشهم ليلاً ونهاراً، والتي لا يمكن التحرر منها إلا بتقديم الولاء المطلق لكل من يقدم نفسه على أنه هو من سيحررهم من ذلك الذنب ويحقق لهم الهدف الكبير الذي سيعيد إليهم كرامتهم وكبرياءهم. حتى إن الحياة بالنسبة إلى من يشعر بالذنب تتحول إلى مجرد «سجن»، كما تصفها كارين جيرهاردس في روايتها «عقدة ذنب»، ولا يتخلص صاحب هذا العقدة من عقده إلا بعمل تدميري يخلصه من الشعور بوجود «سلاسل نحاسية» تثقل روحه طيلة حياته<sup>(57)</sup>.

إن الشعور المفرط بالذنب هو ما يفسر سهولة قيام اتباع كل من الفريقين بالتعذيب الرهيب في

(57) كارين جيرهاردس، عقدة ذنب، زينة ادريس (مترجمة)، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2015)، ص.5.

السجون التي تتبع لهم، بوصف الطرف الآخر هو من يعيق الوصول إلى الأهداف/ الأحلام السياسية. التعذيب في سجون النظام الأسد منظم، وهناك وسائل تقنية للتحكم بشدة التعذيب، فضلاً على أن الإعدام والموت تحت التعذيب أمران يجريان على نطاق واسع، ولا سيما في مرحلة الثمانينيات من القرن المنصرم وبعد عام 2011، كما هو الحال في سجون صيدنايا وتدمر على سبيل المثال لا الحصر. أما في السجون التابعة للميلشيات، فالأمر يتم بشكل عشوائي بحيث يمكن للسجين أن يموت نتيجة نوبة غضب تنتاب الجلاد مثلاً.

### سابعاً: التوظيف الأيديولوجي ومركزية نظرية المؤامرة

إذا كانت الميلشيات الإسلامية العسكرية السنية تستند إلى منطلقات السلفية التكفيرية، فإن النظام الأسد وحزب البعث يستندان إلى الأيديولوجية القومية التي تجعل من الوحدة العربية أهم هدف للسياسة.

وجه الشبه بين هاتين الأيديولوجيتين أنهما يهتمان الواقع لصالح الأيديولوجية، بمعنى أن للنظرية الفكرية أولوية على الواقع. وهذا أسلوب في العمل السياسي يستند إلى أن فهم الواقع وتغييره وحكمه يحتاج إلى نظرية. وعلى ذلك يكون الخلاف بين الفرقاء هو خلاف في النظرية. وهذا يعني أن رؤيتهم الواقع السوري، وتقييمهم السوريين، وما يريدونه من السوريين، قد تكون أموراً مشتركة على الرغم من اختلاف المنطلق الأيديولوجي، بمعنى أنهم يمتلكون فكرة مختلفة، ولكنه لديهم طرق متشابهة، إن لم تكن متطابقة، في التطبيق.

غير مشكلة كل من الطرفين الذين نتحدث عنهما حولاً النظرية أو المنطلقات الفكرية إلى أصنام جامدة، وكيانات تستخدم للمزاودة والاستقواء على المجتمعات، فالذي يقرأ أدبيات السلفية التكفيرية في سورية لا يكاد يعثر على نصوص تتناول مصالح السوريين، وتحسين مستوى عيشهم، واحترام حقوقهم، والتأسيس لحياة عادلة لهم، بل الهم الأساس لتلك الكتابات هو كيفية تحقيق الفكرة الإسلامية والشروط التي على السوريين الالتزام بها من أجل أن يكونوا مسلمين حقيقيين. بمعنى تحويل السوريين إلى محض خدم للفكرة. وبالمقابل يهتم النظام الأسد بالوطن، ولا يهتم بالمواطنين، بتحرير الأمة العربية، وليس بحرية السوريين. كل القضايا التي تتعلق بالحقوق والحريات والتنمية يتم التغافل عنها، وتبرير تراجعها، وتأجيلها لأن هناك صراع وجودي مع الأعداء، وهناك

أهداف قومية يجب أن تتحقق أولاً. وهنا يتم تحويل السوري إلى مجرد أداة لتحقيق الفكرة.

هكذا يضيع كل من الطرفين السوري في غياهب الأيديولوجيا، بحيث يشعر السوري أنه ليس له قيمة من دون الإسلام، أو من دون الأمة العربية، وأن عليه أن يضحي بحقوقه ومصالحه وحياته الشخصية من أجل إعلاء مكانة الإسلام أو تحقيق وحدة الأمة العربية.

يدرك كل من الطرفين أن أسهل وسيلة لحكم السوريين وتحويلهم إلى كيان ملحق بالسياسة، وخادم لها، هي الأيديولوجية. ولعل هذا ما يفسر أن الفريقين يتبعان طريقة إخضاع السوريين لدورات تثقيفية بالنسبة إلى النظام الأسد، ودورات شرعية بالنسبة إلى الميليشيات الإسلامية، مثلما يعتمدان أسلوب الكتيبات والنشرات السياسية الدورية، وأسلوب المسابقات الشبابية للتباري في المعلومات السياسية الخاصة بكل فريق. فضلاً على أن العدو لدي الطرفين مشترك وهو إسرائيل وأمريكا والغرب عمومًا. الفرق الوحيد أن السلفية الجهادية تضيف مصطلح "الصليبيين" إلى الأوصاف التي تجعل من الغرب مستعمراً وغازياً وحاقدًا وراعيًا لإسرائيل.

الاختلاف بين الطرفين أن النظام الأسد يعتبر السلفية الجهادية نموذجًا للعمالة مع الغرب وأداة لتنفيذ مخططاته، بينما تعتبر السلفية الجهادية النظام السوري أنه يمثل نموذج للعمالة مع الغرب وأداة لتنفيذ مخططاته.

الاختلاف الثاني بين الفريقين أن النظام الأسد يمتلك مرونة في التعامل مع "الغرب العدو" أكثر من المرونة التي تمتلكها السلفية الجهادية. فمثلًا يتحدث السوريون عن أن جبهة الجولان لم تطلق منها رصاصة واحدة خلال عشرات السنوات، وأن وزيرة الخارجية الأميركية السابقة مادلين أولبرايت باركت ودعمت استلام بشار الأسد السلطة في عام 2000، بل حضرت جنازة حافظ الأسد، على الرغم من أن سورية موضوعة على قوائم الإرهاب الأميركية. وفي 2004/2005، كان التنسيق الأمني على أعلى مستوياته بين النظام الأسد والولايات المتحدة ضد السلفية الجهادية (الإرهابيين) المتدفقين إلى العراق، حيث سلمت الولايات المتحدة عددًا غير معروف منهم لسورية، ومثلما اعتقل النظام أعداد كبيرة من الجهاديين الذين كانوا يذهبون إلى العراق لمحاربة أميركا هناك. وفي 2014 سلم النظام الأسد أسلحته الكيماوية للأمم المتحدة في صفقة عقدها النظام مع الغرب، بواسطة روسية، لينفذ من دون عقوبة على استخدامه الأسلحة الكيماوية في غوطة دمشق. والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا البحث. حتى إنه يمكن القول إن هذا الاستعداد للتعاون مع أميركا، أو خدمتها

مقابل الحكم والاستمرار فيه يعد أهم نقطة يتفوق فيها النظام الأسد على تلك الجماعات، بل إنه العامل الأساس الذي سمح ببقائه في سدة السلطة لنحو نصف قرن من الزمان.

وعلى الرغم من ذلك الاختلاف يبقى كل من الطرفين يعطى حسابات السلطة والتنازلات والتمويل أولوية مطلقة. فقد تبين مثلاً أن تنظيم الدولة الإسلامية كان يبيع النفط للنظام الأسد، مثلما صرح أبو محمد الجولاني أنه لن يتخذ سورية نقطة انطلاق لجهاد الغرب، أما اعتماد غالبية الميلشيات الإسلامية على التمويل، وامتنالها لطلبات الممولين فيعد أهم شريان لبقائها، مثلما يمكن من خلاله تفسير سياساتها العامة، وقراراتها في الانسحاب من عشرات المعارك التي خاضتها.

وعلى العموم يفضل النظام التعامل مع أميركا بصورة مباشرة، وتقديم نفسه على أنه شرطي المنطقة المطيع، بشرط ألا يتجاوزه الأميركيون في الوقت نفسه. بينما تفضل أميركا ضبط دور تلك الميلشيات الإسلامية عبر دول المنطقة، مع احتفاظها بحق التدخل في بعض الأحيان، ولاسيما حين تحالفت مع حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي ضد تنظيم الدولة الإسلامية، وأخرجته من مناطق الجزيرة السورية وريف حلب الشرقي الشمالي، وقتلت "أبو بكر البغدادي" في ريف إدلب 2019.

## خاتمة

1. كل من الطرفين مستعد للقيام بأي شيء في سبيل السلطة، حتى لو تعدى المصالح الوطنية العليا وتدمير المجتمع السوري بأكمله. هكذا لا يجد النظام الأسد أي حرج من تنازلاته غير المسبوقة عن السيادة الوطنية، وتدميره أكثر من نصف سورية، وتهجيده أكثر من نصف سكانها في سبيل المحافظة على السلطة. مثلما لا يجد قادة الميلشيات الإسلامية حرجاً من تحولهم إلى مرتزقة يعملون لمن يدفع لهم أكثر، هكذا بكل بساطة.

2. اعتماد كل من الميلشيات الإسلامية السنية والنظام الأسد الكامل على العمل العسكري، والعنف عموماً، يعكس لاشريعة المؤسسات، وعدم قدرتهما على تمثيل السوريين بشكل حقيقي. أي إن كل من الطرفين يعرف أنه بدون القوة العسكرية لن يكون له مكان في سورية أو منزلة عند السوريين. ولذلك فإننا إذا فككنا مفهوم «القوة العسكرية» لدى الطرفين أمكننا القول إنها قوة موجهة أولاً ضد السوريين، قوة لتحمي الطرفين من السوريين.

3. مثلما أن «نظرية المؤامرة» موجه أولاً للنيل من السوريين والمزاودة غلهم. نظرية المؤامرة ليست مهمة بذاتها، بل بوصفها أداة فعالة لكي يبرر كل من الطرفين وجوده وهيمنته. كل طرف يتهم الآخر بالعمالة للغرب وهذا صحيح، بمعنى أن كل ما يقوله أحد الطرفين عن الآخر من عمالة للغرب، أو خدمة مصالحه أمر في غاية الدقة. النتيجة طبعاً واحدة، وهي أننا يجب أن نقودكم لكي نتصدى لهذه المؤامرات، وهذا يعني أن كل شيء يجب أن يكون بيد السلطة حتى تسخره في تلك المواجهات الوجودية.

4. الأيديولوجية الدينية والقومية هي بالنسبة إلى الطرفين مجال يجلب مزيداً من السلطة لا أكثر ولا أقل. السلطة التي يتم الحصول عليها عن طريق الأيديولوجية مهمة هنا. وهي أرخص من السلطة التي يتم الحصول عليها عن طريق القوة العسكرية، كما أنها أمضى من القوة العسكرية، بحسب فوكو، بل إنها هي التي تعطي القوة العسكرية معنى.

5. الحقوق والحريات وجعل السوريين مصدر للسلطة وشريك حقيقي فيها هو الهدف الأساسي للثورة. الميلشيات الإسلامية السننية والنظام الأسد كانا على الضد من إرادة السوريين، حيث بقي السوريون موضوعاً للسلطة وليسوا شركاء فيها.

6. ثورة السوريين أدركت أنه لا معنى لنفخ السياسة بالأيديولوجية، ولذلك كانت ثورتهم بلا أيديولوجية، أو لم تضع أي أيديولوجية معينة في أولوياتها. عن طريق الأيديولوجيتين القومية العربية والإسلامية يبيع الطرفين للسوريين الهوية والمعنى، أو رسالة، وكأي بائع، هم يبيعون من أجل أن يقبضوا الثمن، والثمن هو الحصول على وسائل رائعة في السيطرة والهيمنة على المجال الروحي والمعنوي للسوريين. الميلشيات الإسلامية السننية والنظام الأسد يدرك خطر أن يتحرر السوريين من عقدة الذنب الأيديولوجية. غياب الأيديولوجية يعرهم أمام السوريين. ولعل هذا ما يبرر رفض بشار الأسد التخلي عن حزب البعث الحاكم، على الرغم من أنه حزب لم يعد له لا لون ولا طعم ولا رائحة، ورموزه محط سخرية دائمة من قبل السوريين.

على الرغم من أن ارتباط النظام الأسد بالقومية كغطاء أيديولوجي كان أقوى في مرحلة ما قبل عام 2000، إلا أن ارتباط الميلشيات الإسلامية بأيديولوجيتها الإسلامية اليوم أقوى بكثير. وهذا يعود إلى الاختلاف في القوة العسكرية، فكلما زادت القوة العسكرية تراجعت الحاجة للغطاء الأيديولوجي،

والعكس صحيح أيضاً.

7. يؤسس كل من الفريقين لما يمكن أن نسميه وضعاً اقتصادياً، في المناطق التي يسيطر عليها، يساعد على زيادة تعلق السوريين بالعواطف الأيديولوجية والأحلام السياسية التي يطرحها هؤلاء. ذلك ان إهمال الأوضاع الاقتصادية والبنية الصناعية والتجارية والعمرانية، وعدم الاكتراث بفرص العمل وتنمية المجتمع أمور بقيت تشكل العناوين الرئيسة لسياساتهم. وبحسب علم اجتماع المعرفة فإن مثل ذلك الإهمال للأوضاع الاقتصادية العامة يجعل المجتمع متعلقاً أكثر بأيديولوجية خلاصيه ما أو يوتوبيا<sup>(58)</sup>. ولعل هذا ما يفسر الإهمال المتعمد والإفقار المقصود للسوريين.

(58) بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجية واليوتوبيا، جورج ج. تيلور (محرراً)، فلاح رحيم (مترجماً)، (بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2022)، ص 401.

## المصادر والمراجع

1. ابن تيمية، السياسة الشرعية، (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، 1419هـ).
2. أبو هنية. حسن، الجهادية العربية- اندماج الأبعاد: النكاية والتمكين بين «الدولة الإسلامية» و«قاعدة الجهاد»، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018).
3. أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (دم، دن، 2004).
4. أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وحياته، (لبنان: دار الفكر الحديث، 1967).
5. جيرهاردس. كارين، عقدة ذنب، زينة ادريس (مترجمة)، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2015).
6. دياث. نعومي راميريث، مستقبل السلفية المقاتلة في سورية، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2014).
7. ريكور. بول، محاضرات في الأيدولوجية واليوتوبيا، جورج ج. تيلور (محرراً)، فلاح رحيم (مترجمًا)، (بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2022).
8. فرج. محمد عبد السلام، الفريضة الغائبة، محمد عمارة (تحقيق ودراسة)، (القاهرة: شركة نهضة مصر، 2009).